أخلاقيات المعرفة.. واللاوعي الرقمي

يوسف أيوب

2026/08/07

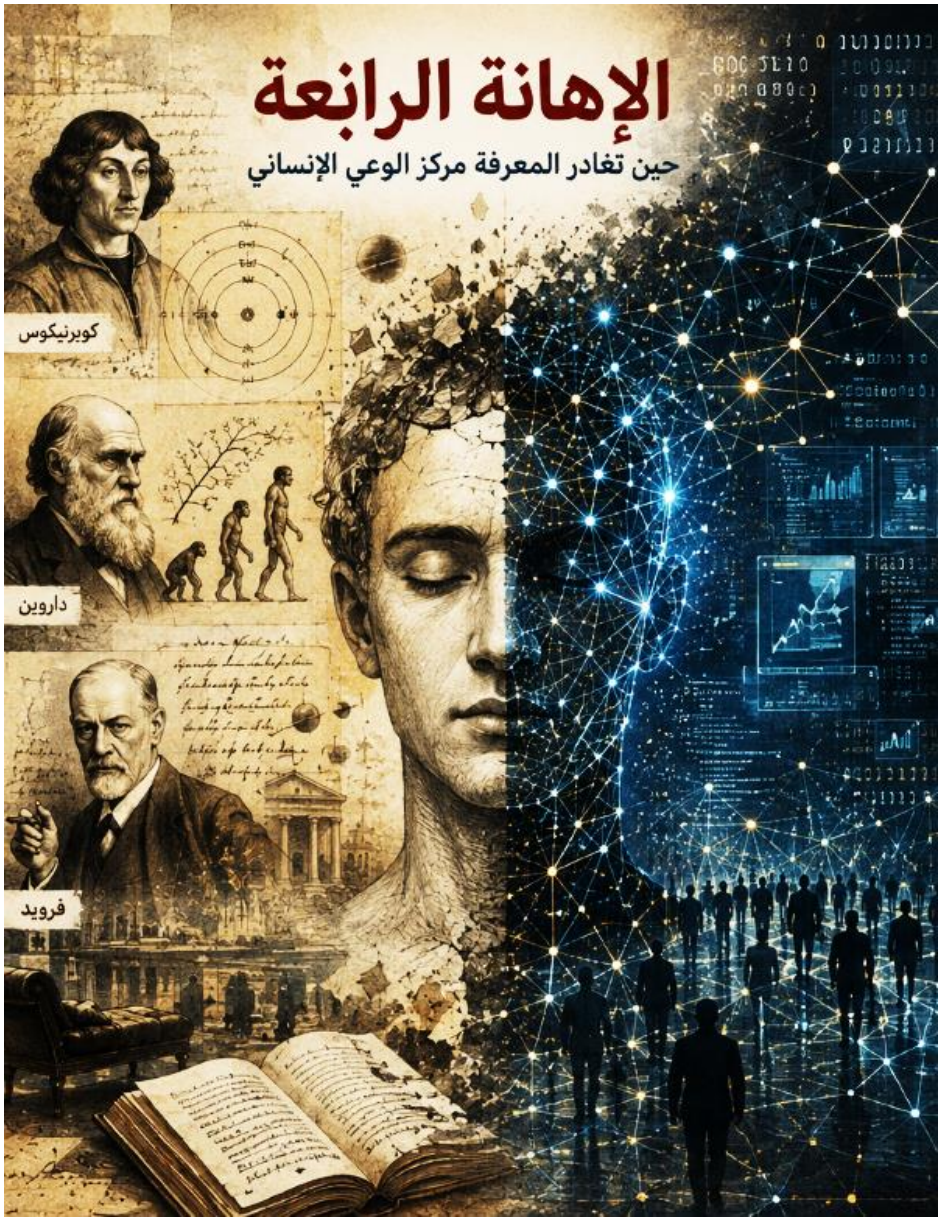

اعتاد الفكر الحديث أن يصف تطور الوعي الإنساني بوصفه سلسلة من «الإهانات النرجسية» التي تلقاها الإنسان عبر التاريخ. فقد أطاح نيكولاس كوبرنيكوس بوهم مركزية الأرض، فكشف أن الإنسان لا يقيم في قلب الكون، بل على كوكب صغير يدور حول نجم عادي. ثم جاء تشارلز داروين لينزع عنه امتياز الانفصال عن الطبيعة، ويضعه داخل السلسلة التطورية للكائنات الحية. أما سيغموند فرويد، فقد وجّه الضربة الثالثة حين بيّن أن الإنسان ليس سيدًا مطلقًا لعقله، وأن جانبًا مهمًا من سلوكه تحركه قوى لاواعية تتجاوز إرادته. غير أن التحول الذي يشهده العالم اليوم لا يقتصر على كونه «إهانة رابعة» تضاف إلى سابقاتها؛ فالإهانات الثلاث مست مكانة الإنسان في الكون والطبيعة وذاته، بينما يمس التحول الراهن الأساس الذي تقوم عليه المعرفة نفسها. فلم يعد السؤال: أين يقف الإنسان؟ أو من يكون؟ بل أصبح: كيف تُنتج المعرفة؟ ومن ينتجها؟ ارتبطت المعرفة، على امتداد التاريخ، بالفعل الإنساني؛ فهي ثمرة الإدراك والتجربة والتأويل والنقاش والقدرة على وصل الوقائع بالمعاني. أما اليوم، فقد أصبحت تتدفق عبر شبكات خوارزمية قادرة على إنتاج النصوص، وتحليل البيانات، واقتراح الفرضيات، وصياغة الأجوبة بسرعة تفوق قدرة الإنسان على المتابعة. ولم يعد الإنسان دائمًا المنتج الأول لها، بل أحد المشاركين في منظومة تتداخل فيها البيانات والخوارزميات والنماذج الرياضية والبنى الحاسوبية. ولا تكمن جدة اللحظة الراهنة في أن الآلة أصبحت «تعرف»، بل في أن المعرفة نفسها بدأت تُنتج داخل فضاءات لا تخضع بالكامل لمنطق الوعي البشري. وهذا يمثل تحولًا أنطولوجيًا وإبستمولوجيًا معًا؛ إذ لم تعد العلاقة التقليدية بين الذات العارفة والموضوع المعروف الإطار الوحيد لبناء المعرفة، بل أصبحت الذات جزءًا من شبكة أوسع تشارك في إنتاجها أنظمة لا تمتلك وعيًا، لكنها تؤثر في تشكل المعنى وانتشاره. من البنيوية إلى البنية الخوارزمية لا يمكن فهم هذا التحول بمعزل عن المسار الفلسفي الذي بدأ مع البنيوية في القرن العشرين. فقد بيّن فرديناند دو سوسير أن اللغة ليست أداة يستخدمها الإنسان بحرية مطلقة، بل نسق سابق عليه يحدد إمكانات التعبير والتفكير. ثم وسّع كلود ليفي شتراوس هذا المنظور ليشمل البنى الثقافية، قبل أن يربط ميشيل فوكو بين المعرفة والسلطة، مبينًا أن ما يُعد حقيقة في كل عصر لا ينتج خارج منظومات القوة التي تحدد ما يجوز قوله وما يُستبعد من مجال المعرفة. لكن ما نعيشه اليوم يتجاوز البنيوية الكلاسيكية. فلم تعد البنى التي تشكل وعينا أنساقًا لغوية أو ثقافية مستقرة، بل تحولت إلى خوارزميات ديناميكية تتعلم باستمرار، وتعيد تنظيم البيانات، وتنتج أنماطًا جديدة من المعرفة من دون تدخل بشري مباشر في كل خطوة. وهكذا، لم تعد اللغة مجرد وعاء للمعنى، بل صارت مادة أولية تغذي نماذج التعلم الآلي، التي تعيد تركيبها لإنتاج خطابات لا يمكن ردها ببساطة إلى قصد مؤلف بعينه. وإذا كانت البنيوية قد أعلنت أن البنية تسبق الذات، فإن العصر الخوارزمي يضيف أن البنى الرقمية أصبحت تحدد، بدرجات متفاوتة، شروط إنتاج المعرفة وما يمكن اعتباره حقيقة أو احتمالًا أو حتى سؤالًا مشروعًا. لذلك يكتسب السؤال الكانطي

التقليدي: «كيف تكون المعرفة ممكنة؟» صيغة جديدة وأكثر إلحاحًا: كيف تجعل الخوارزميات العالم قابلًا للمعرفة؟ وبأي معايير تحدد ما يظهر لنا وما يُحجب عنا؟ اللاوعي الرقمي إذا كان فرويد قد كشف أن الإنسان لا يملك سيادة كاملة على وعيه، فإن الذكاء الاصطناعي يكشف ظاهرة مختلفة يمكن وصفها، على سبيل الاستعارة الفلسفية، بـ«اللاوعي الرقمي». وليس المقصود أن الخوارزميات تمتلك لاوعيًا بالمعنى النفسي، بل أنها تنتج أنماطًا معرفية لا يستطيع حتى مطوروها تفسير جميع آليات تشكلها. فالأنظمة التوليدية الحديثة قادرة على إنتاج نصوص وتحليلات وصور واستنتاجات معقدة، عبر مليارات العمليات الحسابية التي يتعذر تتبعها خطوة بخطوة. وهنا لا يعود الغموض ناتجًا من أعماق النفس البشرية كما عند فرويد، بل من التعقيد الداخلي للنماذج الخوارزمية. يفرض ذلك نوعًا جديدًا من الشك الإبستمولوجي. فلم يعد شك ديكارت ينطلق من الذات الباحثة عن اليقين، بل أصبح شكًا ينشأ من فائض المعرفة ذاته. فنحن ننتج معلومات أكثر مما نستطيع تفسيره، ونحصل على إجابات أكثر مما نفهم آليات تولدها. ومن ثم، لا يعود السؤال المركزي: هل هذه المعرفة صحيحة؟ بل أيضًا: كيف وُلدت؟ وما افتراضاتها الكامنة؟ وما الذي أُدرج فيها أو استُبعد منها قبل أن تصل إلينا؟ ومع ذلك، لا ينبغي أن يقود هذا الشك إلى رفض المعرفة الخوارزمية أو الخوف منها، بل إلى إعادة تعريف علاقتنا بها. فالقيمة لا تكمن في استقبال مخرجات الذكاء الاصطناعي بوصفها حقائق مكتملة، وإنما في التعامل معها كنصوص قابلة للنقد والتأويل وإعادة الفحص. وبهذا المعنى، لا تصبح الخوارزميات بديلًا عن العقل الإنساني، بل مناسبة لاستعادة وظيفته النقدية في مساءلة المعرفة بدل الاكتفاء باستهلاكها. ثلاثة وجوه للمعرفة الخوارزمية ينطوي الحديث عن «المعرفة الخوارزمية» بوصفها ظاهرة واحدة على قدر من التبسيط؛ فالخوارزميات تؤدي وظائف مختلفة، وتثير أسئلة إبستمولوجية وأخلاقية متباينة. ويمكن التمييز بين ثلاثة أنماط رئيسة. أولها خوارزميات توليد المعنى، وفي مقدمتها نماذج اللغة الكبيرة والأنظمة التوليدية التي تنتج نصوصًا وصورًا وشفرات برمجية وتحليلات. ولا تكمن أهميتها في محاكاة اللغة البشرية فقط، بل في إعادة طرح سؤال التأليف: من هو المؤلف حين لا يوجد مؤلف بالمعنى التقليدي؟ ومن أين تستمد المعرفة سلطتها إذا لم تعد مرتبطة بوعي فردي يمكن مساءلته؟ وثانيها خوارزميات تنظيم المعرفة، كالتي تعتمدها محركات البحث ومنصات التواصل وأنظمة التوصية. وهذه لا تنتج معرفة جديدة بالضرورة، لكنها تعيد ترتيب المعرفة القائمة، وتحدد ما يظهر للمستخدم وما يختفي عنه، وما يُمنح الأولوية وما يُدفع إلى الهامش. ومن ثم، تقوم سلطتها على تنظيم إمكان الوصول إلى الحقيقة، لا على إنتاجها فقط. أما النمط الثالث، فهو خوارزميات اتخاذ القرار، التي تتجاوز إنتاج المعرفة أو تنظيمها إلى تحويلها مباشرة إلى أفعال ذات آثار قانونية واقتصادية واجتماعية، كما في أنظمة التوظيف، ومنح الائتمان، والتنبؤ بالجريمة، وتقييم المخاطر. وهنا لا تعود المعرفة تمثيلًا للعالم، بل تصبح أداة لاتخاذ قرارات تمس حياة الأفراد وحقوقهم، وتمنح

الخوارزمية سلطة كانت حكرًا على المؤسسات البشرية. وتنبع أهمية هذا التمييز من أن النقاشات العامة حول الذكاء الاصطناعي كثيرًا ما تخلط بين هذه المستويات، فتطبق على أحدها أحكامًا أخلاقية أو قانونية لا تنسجم مع طبيعة الآخر. من يملك شروط المعرفة؟ إذا كانت الفلسفة الحديثة قد انشغلت طويلًا بالسؤال: كيف تكون المعرفة ممكنة؟ فإن العصر الخوارزمي يفرض سؤالًا آخر: من يملك شروط إمكانها؟ فالخوارزميات ليست كيانات رياضية معلقة في الفراغ، بل منتجات لشركات ومنصات تمتلك البنية التحتية للحوسبة، وتتحكم في تدفقات البيانات، وتحدد آليات التدريب ومعايير التقييم والسياسات التي تضبط ما يُقبل وما يُستبعد من المحتوى. ولذلك، لا تنفصل المعرفة التي تنتجها هذه الأنظمة عن البنية الاقتصادية والسياسية التي نشأت داخلها. ولا تقتصر السلطة على امتلاك البيانات، بل تمتد إلى تحديد أي البيانات تستحق الجمع أصلًا، وأيها يُهمل أو يُستبعد، وأي الأسئلة تُمنح الأولوية، وأيها لا يجد طريقه إلى النموذج. فكل اختيار هو، في الوقت نفسه، استبعاد، وكل نظام معرفي يرسم حدودًا لما يمكن التفكير فيه بقدر ما يحدد ما يمكن معرفته. ومن هنا، يصبح السؤال الكانطي عن شروط المعرفة سؤالًا سياسيًا أيضًا. فالقضية لم تعد تقتصر على كيفية عمل الخوارزميات، بل تشمل لمن تعمل، ومن يحدد أهدافها، ومن يستفيد من نتائجها. وهكذا تنتقل الفلسفة من نقد العقل إلى نقد البنى التي تنتج المعرفة الرقمية ذاتها. أخلاقيات المعرفة الخوارزمية لا يمكن اختزال أخلاقيات الذكاء الاصطناعي في مجموعة من القواعد التقنية أو القانونية، لأن المسألة تتعلق بإعادة تعريف مسؤولية الإنسان في عالم لم يعد ينتج المعرفة بمفرده. وتقوم هذه المسؤولية على أربعة مبادئ مترابطة. أولها الشفافية النقدية؛ أي الاعتراف بأن كل معرفة تولدها الخوارزميات تحمل، بدرجات متفاوتة، آثار البيانات التي تدربت عليها، واختيارات مطوريها، والانحيازات التي يصعب التخلص منها كليًا. ولذلك، لا يكون الهدف الوصول إلى معرفة خالية تمامًا من التحيز، بل جعل هذا التحيز مرئيًا وقابلًا للنقد. وثانيها التفسير بوصفه فعلًا أخلاقيًا. فالمخرجات الخوارزمية لا ينبغي أن تُستقبل كحقائق نهائية، بل كنصوص مفتوحة للتأويل والمراجعة. وكلما ازدادت قدرة المستخدم على فهم كيفية إنتاجها، ازدادت قدرته على الحفاظ على استقلاله المعرفي. أما المبدأ الثالث، فهو الاعتراف بالجهل المنتج. فالتواضع المعرفي لم يعد فضيلة شخصية فقط، بل شرطًا لفهم عالم يتجاوز تعقيده قدرة أي فرد أو مؤسسة على الإحاطة الكاملة به. ومن ثم، فإن الاعتراف بحدود المعرفة ليس نقيضًا لها، بل أحد شروط إنتاجها بصورة أكثر مسؤولية. ويأتي أخيرًا مبدأ العدالة التمثيلية، الذي يقتضي مساءلة الجهات التي تمثلها النماذج الخوارزمية، وتلك التي تغيب عنها. فالخوارزمية لا تعكس العالم كما هو، بل كما ظهر في بياناتها. وإذا كانت هذه البيانات منحازة ثقافيًا أو لغويًا أو جغرافيًا، فإن المعرفة التي تنتجها ستكون منحازة بدورها، وإن بدت موضوعية في ظاهرها. ومن ثم، لا تنفصل أخلاقيات الذكاء الاصطناعي عن نقد اقتصاد المعرفة الرقمية، وعن السعي إلى تنويع مصادر البيانات، وتعدد مراكز إنتاج المعرفة، وتعزيز

الشفافية والمساءلة العامة. فالمعركة الحقيقية ليست بين الإنسان والآلة، بل بين نموذج يحتكر إنتاج المعرفة، وآخر يجعلها أكثر انفتاحًا وتعددًا وخضوعًا للنقد. القلق الوجودي إذا كانت الفلسفة قد انشغلت طويلًا بسؤال الحقيقة، فإن التحول الخوارزمي يفرض سؤالًا آخر: ماذا يحدث للإنسان عندما لا يعود المنتج الوحيد للمعرفة؟ لا يتعلق الأمر بالخوف التقليدي من أن تحل الآلة محل الإنسان في سوق العمل، بل بشعور أكثر خفاءً. فكلما أصبحت الخوارزميات أكثر قدرة على اقتراح الأفكار، وصياغة النصوص، وتحليل الوقائع، ازداد احتمال أن يشعر الإنسان بتراجع دوره المعرفي. ويولد من ذلك شكل جديد من القلق الوجودي، لا يقوم على الجهل، بل على فائض المعرفة. تكمن المفارقة في أن الإنسان المعاصر يعرف أكثر من أي وقت مضى، لكنه لا يدرك دائمًا كيف وُلدت هذه المعرفة، ولا لماذا صيغت بهذه الطريقة دون غيرها. وهكذا ينشأ القلق من اتساع الفجوة بين امتلاك المعرفة وفهم شروط إنتاجها. وقد يقود هذا الشعور، إذا تُرك من دون وعي نقدي، إلى نوع من التبعية الإدراكية؛ حيث يعتاد الإنسان تلقي الإجابات الجاهزة، لا لأنه عاجز عن التفكير، بل لأن كلفة التفكير أصبحت أعلى من كلفة قبول ما تنتجه الخوارزمية. وهنا تكمن المفارقة الأخطر: فالاستلاب لا يُفرض بالقسر، بل قد ينشأ من الراحة التي توفرها التقنية. لكن هذا القلق يمكن أن يصبح مصدرًا لليقظة الفكرية. فكل تحول كبير في تاريخ المعرفة ولّد شكلًا جديدًا من الشك، وكان هذا الشك، في كثير من الأحيان، بداية لتوسيع أفق التفكير لا لانكماشه. الخاتمة لا يتمثل التحدي الحقيقي الذي يفرضه الذكاء الاصطناعي في منافسة الإنسان في الذكاء، ولا في إنتاج نصوص أسرع أو تحليلات أكثر تنظيمًا، بل في احتمال أن يغريه بالتخلي عن الوظيفة التي صنعت الحضارة منذ بدايتها: وظيفة السؤال. فالآلة تستطيع جمع المعلومات وترتيبها واستنتاج أنماط معقدة منها، لكنها لا تمتلك خبرة العيش، ولا مسؤولية الاختيار، ولا الوعي الأخلاقي الذي يمنح المعرفة معناها الإنساني. إنها تنتج الاحتمالات، لكنها لا تعرف لماذا ينبغي تفضيل احتمال على آخر، ولا أي القيم يجب أن تحكم هذا التفضيل. ومن هنا، لم تعد القضية قدرة الذكاء الاصطناعي على إنتاج المعرفة، بل قدرة الإنسان على الحفاظ على استقلاله داخل عالم أصبحت المعرفة فيه موزعة بين البشر والخوارزميات. فإذا كانت الإهانات النرجسية الثلاث قد علمتنا أننا لسنا مركز الكون، ولا منفصلين عن الطبيعة، ولا سادة مطلقين على وعينا، فإن التحول الراهن يعلمنا أن المعرفة نفسها لم تعد حكرًا على الإنسان، لكنها لا تزال بحاجة إلى إنسان يمنحها معناها، ويحدد غاياتها، ويحاسب نتائجها. ولذلك، لن تُقاس أخلاقياتنا المستقبلية بمدى اعتمادنا على الذكاء الاصطناعي أو رفضنا له، بل بقدرتنا على الحفاظ على المسافة النقدية التي تجعلنا شركاء في إنتاج المعرفة، لا مجرد مستهلكين لها. فالحضارة لم تتقدم لأن الإنسان امتلك جميع الإجابات، بل لأنه لم يتوقف عن مراجعتها وطرح أسئلة جديدة. ولعل هذه هي المفارقة الكبرى في عصر الخوارزميات: كلما

أصبحت الآلات أكثر قدرة على الإجابة، ازدادت قيمة السؤال الإنساني. فالسؤال ليس نقصًا في المعرفة، بل شرطها الأول، وهو، حتى الآن، آخر فضاء لا تستطيع الخوارزميات أن تحتله بالكامل.